الفصل السادس عشر

العلاقات التجارية والاجتماعية فى حوض البحر الاحمر واثرها فى نشر الإسلام والعروبة

الموانىء: عيذاب – مصوع (باضع) –جزيرة عيرى (الريح) سواكن – جزيرة ابن عباس – جدة

سبق أن أشرنا إلى الروابط التى تربط بين عرب الجزيرة العربية والضفة الغربية من البحر الأحمر حيث كانت وما زالت تسكن قبائل البجة . ونود أن نضيف أن هذه الروابط لم تنقطع ولم تضعف بظهور الإسلام ، بل إنها زادت اتصالا بسبب المبادئ الجديدة التي كان ينشرها الإسلام ، وأهمها التوحيد ، وبناء مجتمع ديني سياسي يتحلى بمثل عليا . وكانت أولى تلك الروابط الجديدة ما قام به المسلمون من هجرة أولى إلى أراضي الحبشة للجوء إلى النجاشي ، والبقاء معه ابتعادا عن اضطهاد قريش وظلمها للمسلمين القلائل الذين كانوا يقاسون الأمرين . وقد خرج المسلمون في إحدى السفن الشراعية من إحدى الموانئ الحجازية وهي ميناء " الشعيبة " بالقرب من جدة واستأجروها مع غيرهم لكي تحملهم إلى شواطئ البحر الأحمر الغربية حتى يسيروا من هناك إلى أراضي الحبشة . وكان واضحا أن هؤلاء المهاجرين سلكوا طريق البحر علما منهم بأنهم إن سلكوا طريق قوافل الإبل ليقطعوا

الأراضي التي بين مكة المكرمة وموانئ اليمن فإن الرحلة ستكون طويلة ، وإنه من الممكن أن تلحق بهم الأفواج التي كانت ترسلها قريش خلفهم ، والتي لا شك في أن رجالها سيفتكون بهم . لذلك فقد كان طريق البحر أسرع إبحارا وأكثر أمنا ، إذ أنه في ذلك البحر لن يعرف أين سار المبحر وأين حط أثناء الرحلة ، مما يجعل إمكانية وصولهم سالمين للحبشة أمرا قوي الاحتمال .

والحبشة ، كما نعلم ، أرض مغلقة لا ساحل لها ، بل هي مغلقة على نفسها من جميع النواحي . وكان المنفذ الرئيسي لها هو عن طريق مصوع التي كانت تسمى باضع في الماضي . وكانت هذه الميناء تابعة لمملكة البجة التي تمتد حدودها السياسية المعترف بها بين الدول القديمة ، وخاصة العباسيين من عيذاب على البحر الأحمر شمالا حتى مصوع ودهلك جنوبا . غير أن المصالح التجارية التي جعلت الحكومات التي تعاقبت على مصر تستخدم عيذاب لنقل البضائع التجارية والمسافرين من مصر واليها هي التي جعلت مملكة البجة تسمح للحبشة باستخدام مصوع لنفس الأغراض وبنفس التسامح وبقدر قليل من الضرائب التي كان يتقاضاها ملك البجة المسئول عن تلك النواحي والتي عرفها اليعقوبي بأنها مملكة جارين [٢٢] . وتمتد مملكة جارين هذه من باضع (مصوع) إلى بركات (أي خور بركة الذي يروي أراضي توكر بالسودان .

ركب هؤلاء المهاجرون السفينة ، وتقاضى منهم صاحبها مبلغ نصف دينار عن كل واحد منهم ، وأبحرت من ميناء شعيبة [٢٣] السعودي

---

[٢٢] اليعقوبي – دار صادر – ص ١٩٢ .

[٢٣] السيرولاس بدج : تاريخ أثيوبيا ص ٢٧٠

قرب جدة ، واتجهت جنوبا نحو مصوع .وفي الطريق توقفت في جزيرة عيري السودانية – التي يطلق عليها أيضا اسم جزيرة الريح – وذلك بغرض التزود بالماء والراحة والتفريغ والتحميل ، ثم من هناك أبحرت إلى باضع (مصوع) .وعلينا أن نتحدث قليلا عن وصف جزيرة عيري هذه بما شاهدناه فيها ، فهي جزيرة صغيرة تمتد لأكثر من ميل طولا وربما بلغ عرضها في رأسيها حوالى مائتي متر . وهذه الجزيرة أطلق عليها أبناء قبيلة العجيلاب اسم جزيرة الريح وهي خالية من السكان الآن ، ويطلق عليها أهالى المنطقة التي تسكن في الشواطئ السودانية جزيرة عيري أيضا أو جزيرة ابن مد . وهذه القبيلة التي تسكن في الشواطئ المجاورة لها هي قبيلة العجيلاب من بطون بني عامر السودانية [٢٤]. وفي هذه الجزيرة الآن مرتفعات ناتئة عن الأرض هي بقايا منازل دمرت في الماضي .كما أنه كان بها خزانات تحت الأرض للمياه عندما زرتها في سنة ١٩٣٩ ، وقد بلطت هذه الخزانات بالنورة البيضاء حتى لا تتسرب المياه منها إلى داخل الأرض . وهذه الخزانات كانت أيضا مغطاة بسقوف مطلية بالنورة أيضا. ويبلغ طول الخزان حوالى ثلاثة أو أربعة أمتار في مترين . وكانت هناك فتحة على جانب كل خزان لكي تنشل منها المياه بواسطة الدلاء . قد عملت الفتحة وبالقرب منها حوض يتكئ عليه الدلو حتى إذا فاضت بعض المياه منه رجعت مرة أخرى إلى الخزان . ووجدت في بعض الأكوام المتراكمة من بقايا المساكن المهدمة بعض قطع زجاج ملون باللون الأزرق وغيره أيضا . وكان هناك مكان قال أحد أبناء عمومتي ممن رافقني في الرحلة أنه كان مسجدا . ولكن

---

[٢٤] احدى قبائل بني عامر البجاوية ومعنى عجيلاب أبناء عجيل ، وآب كلمة بجاوية تعني آل أو أبناء .) وتعترف قبائل بني عامر الأخرى لهذه القبيلة بأنهم ملوك الساحل .

بفعل التقادم في السنين الأخيرة فقد تهدم تماما . ولكن مازالت في الموقع بعض الحجارة التي كانت قد بنيت منها الأعمدة . وهناك ساحة للمقابر وبها بعض شواهد القبور ، وقد وجدت منها شاهدا أمكن لابن عمي محمد إبراهيم ضرار أن يقرأه .

أما قصة هذه الجزيرة فهي أغرب من الخيال ولا أرى ما يمنع من ذكرها هنا حتى يأتي من بعدى ليحقق في صحتها وصحة وقائعها .

كان يسكن في هذه الجزيرة بعض بقايا بني أمية ممن هرب من وجه العباسيين ولجأ إلي بلاد النوبة ، ثم طلب منهم ملك النوبة أن يرحلوا من بلاده لأنه لا يريد أن يدخل في منازعات مع العباسيين في مصر بسبب وجودهم في أرضه . ورحلوا من دنقلا وعبروا أراضي شنقير[٢٥] متجهين شرقا حتى وصلوا إلى أرض البجة . وهناك اشتبكوا مع البجة في مناوشات كثيرة حتى وصلوا سواحل البحر الأحمر ، فوجدوا هذه الجزيرة التي يمكن أن يخاض إليها من البر السوداني . وكنا عند وصولنا إلى البر قد خضنا إليها ونحن على ظهور جمالنا ، ولم يصل عمق الماء لأكثر من متر وثلث تقريبا حتى أن قرب المياه المصنوعة من القماش السميك المخصص لمثل تلك (الزمزميات) غطست في الماء ، ولما وصلنا إلي الجزيرة ، وكان الوقت صيفا ، والجو حارا جدا ، أردنا أن نشرب من تلك الزمزميات فوجدنا ماءنا الحلو الذي كان بها قد اختلط بماء البحر ، ولم نقدر على الشرب. وبقينا يومنا ذاك في ظمأ شديد . ويبدو أن زمزمية واحدة لم تختلط مياهها لأنني أرى الصورة التي أخذت في الخزان ونحن في داخله يشرب فيها والدي وعمي عثمان القهوة غير أنني لا أتذكر كيف نجت هذه الزمزمية من

[٢٥] يعتقد بأنها منطقة مدينة (أبو حمد) .

ماء البحر الا إذا شرب الوالد والعم القهوة من الماء المخلوط . وعلى كل حال يبدو أن الجميع كانوا يجدون لذة في تلك القهوة . أما أنا فقد أخذت الصورة بآلة تصوير بدائية هي التي كنت قد استطعت الحصول عليها في ذلك الوقت .

استطاع هؤلاء الأمويون الفارون عبور ماء البحر واللجوء إلى تلك الجزيرة وعاشوا فيها بعيدا عن متناول البجة ، إذ أن المكان كان وما زال مقفرا لا يسكنه أحد ، وأقرب جماعة كانت تسكن على مرحلة يوم واحد من الساحل .

نزل الركب الأموي في الجزيرة وبنوا دورهم ومسجد المدينة ، وعاشوا فيها زمنا طويلا على حد قول الرواة الذين كانوا يقصون علي قصة جزيرة ابن مد أو عيرى . ويقول هؤلاء الرواة بأنه في ذات يوم وصل الجزيرة رجل غريب ليس من أهلها ، ولم يعرف أهل الجزيرة كيف وصل أو من أين جاء ، واقتيد إلى الملك ، فتركه يعيش بينهم في الجزيرة . ثم ما لبث هذا الرجل أن استقطب ود الملك وصار من أصفيائه ، وتقرب إليه أكثر ، وطلب منه في آخر الأمر أن يزوجه ابنته . ورحب الملك بالمصاهرة ، ولكن بقية المقربين إليه والأقرباء اعترضوا على ذلك لأن الرجل كان مجهول النسب والحسب وليس له عشيرة يعتد بها . ولكن الملك كان تحت تأثير هذا الرجل فأصر على قبوله صهرا له . وتم الزواج بالفعل ، وأنجبت زوجة الرجل المجهول ولدا . وهنا لم يستطع رجال الجزيرة هضم وجود هذا الرجل بينهم ، فاستقر رأيهم على قتله . وبالفعل نفذوا تلك الفعلة في أحد الأيام وقتلوه ، وحملوا رأسه إلى الملك ليؤكدوا ما فعلوه .

ويمضي الراوي قائلا بأن أهل الجزيرة كانوا يعملون في جمع اللآلئ من البحر ، وكانوا يدفعون الصدقات والضرائب من تلك اللآلئ للملك . ثم إنهم جعلوا من جمجمة هذا الرجل الذي قتل مدا لكي يكيلوا به تلك اللآلئ وغيرها ، وأصبح المدُّ معروفا لديهم .

في هذا الوقت كان ابن الرجل ينمو ويكبر وقد أطلق عليه أهالى الجزيرة " ابن مُدّ " إمعانا في الازدراء به وتحقيرا له . وعرف بهذا اللقب بين زملائه ولدائة. ولصغر سنه لم ير في ذلك شيئا . وحدث في أحد الأيام بينه وبين أحد زملائه خلاف ، فسبه زميله بأنه ابن مد ، وأنه لا أب له . وحز ذلك في نفس الصبي ولم يقبل الاستهزاء به ، وذهب إلى بيته .وهناك سأل أمه عن حقيقة اسمه . ولم تشأ الأم في بادئ الأمر أن تقول الحقيقة ، وأن تذكر له بأن أخواله هم الذين قتلوا أباه . وكان والده قد ترك بعض المخلفات لدى الزوجة ، وكان من بين ما ترك وراءه المصحف الشريف وفيه سلسلة نسبه ، وأشياء أخرى . وحفظ الابن هذه الأشياء لدى أمه حتى بلغ سن الشباب .

وفي يوم من الأيام اختفى ابن مد من الجزيرة ولم يعثر له على أثر في جزيرة عيرى ، ولم يستطع أحد من الأهالى معرفة المكان الذي ذهب إليه . ولما لم يكن أمره بذى أهمية لأهل الجزيرة فإن الأمر طوي في زوايا النسيان . وسارت الأمور في الجزيرة كما كانت عليه دون أن يكون لابن مد مجال في أحداث الجزيرة اليومية .

بعد فترة من اختفاء ابن مد عن الجزيرة أطلت على شاطئها قطع من اسطول بحرى عليها رجال مقاتلون وأحاطت بالجزيرة من كل جانب ، وقطعت المعبر المائي الذي لم يكن عميقا حتى لا يهرب سكان الجزيرة إلى البر

البجاوي سباحة أو خوضا . ثم أحكموا تطويقها وأخذوا يقصفونها بقنابل على حد قول الراوي ، وتساقطت هذه القنابل على البيوت والمباني ، وأخذت تدمرها . ونفذت أقوات الأهالي ، ولم يستطيعوا اختراق الحصار البحرى ، ولم يبق لديهم طعام أو شراب إذ أن الماء الذي في الخزانات قد نفد لعدم إحضار ماء من الأرض البجاوية وآبارها . وأصبحت ممتلكاتهم ليست بذات قيمة . وذكر الراوي بأنهم كانوا يعرضون لبعضهم بعضا مُدّ اللآلئ ليستبدل بمد من الذرة . وضاقت بهم الحال ، ثم أخذ بعضهم يتسلل من الجزيرة جماعات وأفرادا ، فمنهم من قتل وهو يسبح في البحر ، ومنهم من لقي حتفه عند نزول بعض القوات الغازية إلى الجزيرة ، وما هي إلا ساعات حتى كان سكان الجزيرة إما طالبا النجاة بعد عبور البحر إلى الأراضي السودانية ، أو مسجَّي على أرض الجزيرة مخضبا بدمائه . وأضاف محدثي بأن أهالى الجزيرة عرفوا عند نزول القوات المعادية أنها كانت تحت قيادة ابن مد الذي كان يشير إليها بما تفعل .

وهكذا انتهت الحياة في الجزيرة ، وخلت من أهلها ، وسقطت مبانيها ولكن كانت خزاناتها التي بنيت للمياه ما زالت باقية دون أن تبليها القرون عندما شاهدتها في سنة ١٩٣٩ .

هناك تساؤلات تخطر على بال المرء عند سماع هذه القصة ، فالمرء يريد أن يعرف من هم سكان الجزيرة ، ومتى وصلوا إليها ، وهل سبقهم شعب آخر في استيطانها ، ومن هو والد ابن مد ، وكيف وصل إلى الجزيرة ، وكيف عرف بها ، وإلى أي بلد رحل ، وكيف ركب البحر ، ومن هم أصحاب القطع البحرية التي أقلته في الجزيرة مرة أخرى ثم ضربت الجزيرة بالقنابل ، وهل كانت هذه الأداة التي دمرت البيوت قنابل أم حجارة

منجنيق ، وكم كان عدد سكان الجزيرة ، وكم قرنا عاشوا في الجزيـرة ، ثـم أين تراهـم ذهبـوا عندمـا نجـح بعضهـم في الفـرار مـن الجزيـرة إلي الأراضـي السودانية الرئيسية ؟ وغـير ذلـك مـن الأسـئلة الـتي قـد تخطـر علـى ذهـن القارئ .

وجد المستر كروفوت أربعـة شـواهد قبـور في الجزيـرة نقشـت فيهـا أسماء أشخاص هم الوليد بن أحمد بن أبان المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، ومحمد بن ميمون بـن أحمـد بـن الوليـد المتوفـى سـنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٥ م ، وكعب بن خليفة ابن عبد ا لله القيسـي المتوفـى سـنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م ، وحسين بن عبد ا لله بن سعود بن الفضـل الحوفـى الذي حـددت وفاتـه بـين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخـامس الهجـرى . وهـذه أسمـاء كمـا تبـدو عربية ويغلب علي بعضها التسمية الأموية ، وبعضها عربي قح ما عدا الاسم الأخير الذي نسب إلى أنه حوفي من مصر . ولعل نسبته هذه مردها أنه كـان قد تجول بعض الوقت بعد خروجـه مـن مصـر ونـزل في جزيـرة عـيري حتـى وافته المنية هناك .

إن جزيرة عيرى تدل على أنها كانت سكنا لجماعـة مسـتقرة مضـى عليها أكثر من قرن من الزمان ، كما كانت حياة استقرارها آمنة فهـي بنـت البدور ، وخططـت الشـوارع ، وشـيدت المسـجد ، وأدخلـت التعليـم بـين أهليها ، وهذا يظهر من استطاعة الناس كتابة شواهد القبـور الـتي وجـدت . وبالإضافة إلى هذه الشواهد الأربعة فإن جماعتنا التي كانت بقيادة والدي قـد

وجدت شاهدا ليس من نوع حجارة الجرانيت التي وجدها كروفوت ولكن من حجر رملي بعض الشئ وقد نقش عليه ما يلي[٢٦] :

" بسم ا لله الرحمن الرحيم . كل شئ فان . ولا يبقى الا وجه ا لله الكريم اله السماوات والأرض . هنا ... (حذف الاسم أو لعله لم يكتب وكأنما أعد الشاهد مقدما في انتظار من يموت ليضاف الاسم إلى بقية الكلمات) . ثم نقش الآتى :

ا لله أمر كلنا سنعـــود وا لله حي دائم موجـــود

الرحمن الشفيع جهرا يراكم ولكم آيات مبيع لا تنهاكم

اختفى بعد ذلك سكان جزيرة ابن مد . ولم يعرف على وجه التحديد كيف تمت نهايتهم وأين ذهبوا . ولكن يحدثنا مؤرخ البجة محمد صالح ضرار [٢٧] أن شيوخ قبيلة أَلْمَدَة حدثوه بأنهم سكان جزيرة عيرى الأصليين ، وأنه عند ظهور الإسلام جاءهم بعض اليمنيين من الجزيرة العربية وسكنوا معهم ، واختلطوا بهم ، وكانوا مسلمين ، فنشروا الإسلام بين السكان ، ثم ما لبث أن جاءت جماعات أخرى فيما بعد من الأمويين ، ونزلت الجزيرة وسكنت فيها ، ثم انتزعت الملك ممن سبقها . وكان ملكها رجلا يدعى أَلْمَداي أي الماضي ، واختلطت اللغة العربية باللغة التي كان يتكلم بها السكان الأصليون ، ونتج عن ذلك ظهور اللغة البني عامرية إلى الوجود وهي اللغة التي تعرف أيضا بالتيجرية ، وعند قبائل الحباب بالحبابية ،

---

[٢٦] كان من الصعوبة بمكان قراءة نقش هذا الشاعد ، وتمكن الأديب محمد إبراهيم ضرار في آخر الأمر من قراءته ، ووجده على النحو الذى بيناه هنا .

[٢٧] محمد صالح ضرار : تاريخ قبائل الحباب والحماسين بالسودان وارتريا – نشر الدار السودانية ص٤ – ١٤ ١٩٨٤ .

وهي اللغة التي تتكلم بها سائر قبائل بني عامر والحباب الآن .وما يهمنا الآن من جزيرة عيرى هو أنها كانت إحدى الموانئ التي عاشت فيها مجموعات عربية مسلمة في خلال القرون الخمسة الأوائل من الهجرة ، وقد ازدهرت في تلك الفترة حتى قضى عليها أو انقضت حياتها سواء بسبب غزو أجنبي أو ناموس محلى كما رجح كروفوت على أنه من أسباب التعجيل بنهايتها . أما في فترة بقائنا القصيرة في الجزيرة فإننا لم نعثر على ناموس في شهر يوليو ١٩٣٩.

بقى أن نذكر بأن ابن جبير قد ذكر بأن أهل جدة كانوا يحفظون المياه في خزانات في الأرض ، وربما فعل غيرهم من سكان الجزيرة العربية ذلك ، وهو يمثل ميدانا جديدا للبحث لمعرفة ما إذا كان أسلوب بناء هذه الخزانات متماثلا في كل من جدة وعيرى بل وفي غيرهما من البلدان العربية الأخرى التي توجد فيها مثل هذه الخزانات . ويمكن للبحث أن يمتد حتى يصل إلى دمشق عاصمة الأمويين .

وقد أحدثت جزيرة عيرى بعض النقاش حول حقيقة أمرها فقد أسماها بعض المؤرخين مثل كروفورد "باضع" ، ويبدو أن الدكتور يوسف فضل والدكتور صلاح الدين شامي قد قبلا هذا الاسم على هذا الموضع ، غير أن والدي محمد صالح ضرار وهو من أبناء منطقة البجة الجنوبية أشار إلى أن باضع هو الاسم القديم لميناء مصوع ، وأنه لا علاقة له بجزيرة ابن مد . والواقع فان المتقصي لهذه الوقائع يجد أن ابن حوقل يضع جزيرة باضع في خريطته في موقع جزيرة مصوع بالقرب من دهلك ، ولم يضعها في موقع جزيرة عيرى .

ورغبة في التعرف على هذه الأماكن فان هناك جزيـرة أخرى شمالي جزيرة عيرى تعرف باسم جزيرة ابـن عباس ، وفي هـذه الجزيـرة مـن الآثـار والخزانات ما يشبه جزيرة عيرى ، وهي أيضا تسـتحق أن يعمـل فيهـا بعـض التنقيب الأثرى بحثا عن تاريخها وحياة مـن سـكنها مـن العـرب والمسـلمين . ونظرا لتعدد شواهد القبور التي وجدت في الجزيرة والخـط العربـي المختلـف الذي كتبت به فقد يدل هذا على مدى الحضـارة الـتي كـان عليهـا السـكان ومستوى تعليمهم . وقد يجد الباحث في أتربة المسجد وكثبان الرمال المنتـثرة في الجزيـرة بعـض الآثـار المفيـدة كالمصـاحف والألـواح والأوانـي المنزليـة والزجاج الملون كالذي وجدناه .

إن جزيرة عيرى هي باضع التي يشـير إليهـا المؤرخـون والجغرافيـون العرب ، ويذكر الدكتور يوسف فضل أن سكانها كانوا يتقايضون بالأمشاط والعطور مع الأحباش ويأخذون منهم العاج وبيض النعام وغير ذلك . بيد أن من يسـافر علـى ظهـور الإبـل في تلـك الأنحاء بـين الأوديـة والجبـال يعـرف الصعوبات التي تواجه مثـل هـذه التجـارة ، وهـي تجـارة أخلـق أن تقـوم بهـا مصوع من عيرى وذلك لوعورة المسالك بين الحبشة وهذه الجزيـرة . وحتـى الثلاثينيات من القرن العشرين فإن أبناء البجة من بني عامر كـانوا يسـافرون مـن العقيـق السـودانية إلى مصـوع بحـرا بالسـنابيك ، بـل ويبحـرون مـن بورتسودان وسواكن للعقيق بالسنابيك أيضا، ومن هناك بـالإبل إلى توكـر ، أو من تِرنْكِتاتْ إلى توكر بالإبل . وليس هناك دليل تـاريخي علـى أن منطقـة البجة هذه التي توجد فيها جزيرة عيرى كانت يوما ما جزءا مـن الحبشـة بـل كانت كما ذكـر اليعقوبـي وابـن حوقـل مملكـة بقلـين التابعـة لمملكـة البجـة

الكبرى والتي نزلت فيها موجات وأفواج من القبائل العربية واختلطت بالبجة الأصليين وانتشرت بينهم اللغة البنى عامرية .

ويصعب معرفة ما كان يفعله سكان هذه الجزيرة ، ولربما كانوا كما ذكرت الرواية الشفوية التي وصلتنا يعملون في صيد اللؤلؤ كما يفعل كثير من العرب البحارة حين يقدمون من مختلف شواطئ الجزيرة العربية لصيد الؤلؤ من ميناء دنقوناب ومحمد قول على الشواطئ السودانية . ومن اختيار هؤلاء العرب الذين سكنوا عيرى نستطيع أن نخلص إلى القول بأنهم كانوا يريدون أن يعيشوا بعيدا عن أرض البجة حتى يكون البحر بينهم وبين البجة فلا يغير عليهم هؤلاء فجأة بل يضحى البحر درعا لهم دون غارات البجة كما كان الحال بسواكن .

وما قيل هنا عن جزيرة ابن مد يقال عن جزيرة ابن عباس وعن سواكن أيضا . وقد كانت هذه الجزر أشبه ما تكون بمنطقة حرة للتجارة حيث ينعم فيها التجار الأجانب والملاحون بشيء من حرية الحركة نظير مكس معقول للإدارة المسئولة عن تلك الجزيرة . وعادة ما يقتسم هذا المكس المسئولون عن الإدارة المحلية مع الدولة الإسلامية الكبرى ذات السيادة سواء أكانت دولة الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك أو العثمانيين . وكان هذا هو ما يحدث في كل من عيذاب أولا ، وفي سواكن ثانيا عندما أخذت في احتلال مكانة عيذاب البحرية والتجارية . وكان يحدث أحيانا أن يكون على رأس الدولة سلطان مصلح يهتم بالتجارة وتطورها ، والحج ومساعدة ضيوف الرحمن على أداء الفريضة ، فيصدر القوانين لإعفاء الحجاج من الرسوم المفروضة عليهم كما فعل في الماضى صلاح الدين الأيوبي ، وكما فعل في القرن العشرين الملك عبد العزيز آل سعود حين

أصبح واليا على الجزيرة العربية ، فاستراح القاصى والدانى "[٢٨]" من حجاج بيت الله الحرام .

وقد شغلت جزيرة عيرى الأذهان ، وقام كرو فوت بزيارتها زيارة من الواضح أنها كانت أطول من زيارتنا لها ، كما أنه كان يصحبه عدد من العمال الذين كان يقودهم للبحث والحفر والتنقيب ، وقد سطر كل ما وجده في مقالة نشرها في سنة ١٩٠٤ تحت عنوان " بعض موانئ البحر الأحمر في السودان الإنجليزي المصري " . ولما كان ما وجده كروفوت ذا أهمية بالغة في معرفة الكثير عن هذه الجزيرة ، بل وجهلنا أيضا بالكثير عنها فإننا نرى أنه من المفيد أن نسطر هنا تلك الأجزاء الهامة التي لها علاقة بالحديث بين عدوتي البحر الأحمر . ويلاحظ من المصادر العربية بل وربما أيضا من المصادر الكلاسيكية من يونانية ورومانية أن ما كتب عن موانئ الضفة الغربية في السودان بحدوده القديمة على البحر الأحمر من عيذاب شمالا إلى مصوع ودهلك جنوبا كان أكثر بكثير مما كتب عن المراسي الواقعة في الجزيرة العربية . ولعل السبب في ذلك توفر المياه من ناحية ، وكثرة السلع التي يتاجر فيها أصحاب التجارات منذ العهود البعيدة بدءا من قدماء المصريين . وقد تعاقبت دول اليمن أيضا على هذه التجارات من معينيين وسبئيين وحميريين .

يقول كورفوت إنه ليس هناك أي مصدر من مصادرنا يفيدنا عن سبب هجران أهل الجزيرة لها أو كيف تم ذلك . وللأهالى روايتان في ذلك ، إحداهما تذكر بأنه حدثت مجاعة في الجزيرة فهجرها أهلها ، أما الرواية الأخرى فتذكر أن بني عامر غزوا الجزيرة وخربوها! ونجد أن المصادر الخاصة

---

[٢٨] محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر – ص (١٨٧)

بباضع قليلة جدا غير أن الخرائب تعطي معلومات كثيرة عن نشاط أهالي الجزيرة ، وذكائهم المتوقد ،وقدرتهم الخارقة في مكافحة المعوقات الطبيعة التي تواجه الجزيرة بسبب موقعها .

تقع الخرائب المتبقية في الجزيرة في بقعة من الأرض تقع في الجنوب الغربي من الجزيرة ، وتتصل بشعب مرجانية توصل بين الجزيرة والأراضي السودانية الرئيسية . وفي الجانب الغربي من هذه البقعة توجد بقايا جدران كثيرة ومنازل وخزانات مياه ، ويمكن للمرء أن يحدد خطوط شوارع المدينة دون كبير عناء . ونجد المنازل مبنية من حجارة مرجانية منحوتة في شكل مكعبات [٢٩] (بلوكات) وقد وضعت على خرصانة أو مونة . ولكل منزل خزانه الخاص به مع اختلاف الحجم والشكل بين كل خزان وآخر . ويبدو أن الجدران الأكبر حجما تخص المباني الحكومية. وقد تكون مستودعات . وخلف هذه الخرائب في شكل نصف دائري من الناحية الشمالية والشرقية في المدينة القديمة نرى سلسلة من التلال أو المرتفعات، وقد ارتفعت لحوالى ٣٠ قدما فوق سطح البحر . وقد حفر الرجال الذين كانوا معى خندقا في أحد التلال الكبيرة و قالوا عنه إنه يخفى تحته أنقاض قصر الحاكم . ووجدوا كما كنت أتوقع بعض عظام الحيوانات الأليفة والصدفات وبعض أجزاء من الفخار وبعض الصينى الملمع وبعض قطع الزجاج ، وكلها بقايا نفايات المطبخ .

---

[٢٩] كانت قصور مساكن مبنية بمثل هذه المكعبات أو البلوكات المرجانية وكذلك كان البناء في بورتسودان حيث تنحت قطع الحجارة لتكون قطعا من البلوكات .

ولقد عددت أكثر من مائة خزان في الموقع . وقد يكون هناك ضعف هذا العدد . ويبدو أن هذه الخزانات كانت تملأ من مياه الأمطار التي تتدفق من سطوح المنازل .

وفي شمال المدينة بعد الساحة التى خصصت لخزانات المياه نجد المقبرة القديمة . وفي هذه المقابر وجدت أربعا وعشرين قطعة من الشواهد منها سبع قطع من الأحجار المرجانية ، وأما البقية فمن حجارة felsite أحضرت من الأراضى الرئيسية . ولسوء الحظ فإن نعومة الحجارة المرجانية لم تترك شيئا ذا فائدة من حيث إمكانية فك رموز ما نقش فيها من ناحية ، كما أن صلابة حجارة الأرض الرئيسية جعلت الكتابة جد عسيرة بحيث يصعب ظهورها ثم قراءتها . ومع كل فقد نجحت في قراءة الأسماء والتواريخ على ثلاثة من هذه الحجارة ، وقراءة الأسماء فقط على اثنين أو ثلاثة منها . وكلها تبدأ بالبسملة وآية قرآنية وغالبا ما تكون سورة الإخلاص . والتواريخ الثلاثة هي ٣٨٧هـ ٤٠٥وهـ و ٤٢٨هـ وهي توافق السنوات ٩٩٧م و ١٠١٥م و ١٠٣٧م . والخط الذي كتبت به هذه الشواهد جيد اذا ما قورن بالشواهد التي وجدت في أسوان ودهلك في نفس الفترة .

ولما كنت مهتما بالبحث عن بعض البقايا إلتى تعود الى ما قبل الفترة الإسلامية فإنني أخذت في التنقيب أكثر وقد قادنى ذلك إلى العثور على جثث قد دفنت وهي متجهة نحو مكة بطريقة تتمشى مع العقيدة الإسلامية وسننها .

وقد وضعت أربعة من هذه الشواهد والتى هي بحالة ممتازة في متحف الخرطوم مع بقايا زجاج وفخار مما وجد مبعثرا في الموقع .

من هذه الأنقاض التي وجدتها فانه بودي أن أعلن بأن هذه البقايا تعطى صورة وضاءة عن قدرة هؤلاء المسلمين الأوائل وعن بعد نظرهم وقدرتهم على التنظيم مما جعلهم قادرين على التوسع ليس على أراضي البحر الأبيض المتوسط المعروفة جيدا أو على طرق الأراضى الآسيوية التي تقع على الطرق التجارية ولكن أيضا في الأراضي الواقعة على سواحل إفريقيا وتلك التى في داخلها . وإنها توضح الأحوال الصعبة التى كانت خلال العصور تواجه أولئك المغامرين في السواحل والقدرة على التغلب على هذه الصعاب – هذه القدرات التى كانت تتحلى بها هذه الأجناس التى يهتم بها علماء المصريات والعصور الوسطى . لقد علمنا من ياقوت أن باضع كانت مدينة مختلطة الجنسيات وأن سكانها كانوا يتحدثون لغتين – غير أن الكتابة التى عثرنا عليها لا تعطينا أقل فكرة عن اللغة الأخرى التى كان يتحدث بها الجزء الثاني من السكان " . انتهى قول كروفوت .

أما جزيرة ابن عباس فلم يذكر كروفوت شيئا كثيرا عنها ، غير أنها كانت تسمى عقيق القديمة كما يطلق عليها اسم بهدور ، وأنها أصبحت مأوى لقبيلة الزبيدية العربية التى كانت تأتى من الجزيرة العربية وترسو بسنابيكها للاتجار في كل ما تقع عليه أيديهم دون تمييز بين السلع المحرمة وغير المحرمة .

ولما كانت جزيرة عيرى كما يسميها البنى عامر الذين يسكنون المنطقة قريبة المنال من أيدى سكان الأرض الرئيسية فإننا قد نستنتج من ذلك أن اللغة الأخرى ربما كانت إحدى لغتى البجة وهما الهدندوية "

التبداوية " أو البنى عامرية " التيجرية " ، ولو كانت التيجرية [٣٠] قد ظهرت في ذلك العصر ، وتحدث بها أبناء جنوب مملكة البجة فقد يكون من الأغلب أنها هى اللغة الثانية التى في الجزيرة العربية . ويلاحظ أن هناك دائما خلطا بين جزيرة عيرى وجزيرة مصوع ، وكما ذكرنا فإن كثيرا من المؤرخين يميلون إلى القول بأن عيرى هى باضع إلا أن المؤرخ محمد صالح ضرار الذي كان حاذقا للغة التيجرية والتبداوية بالإضافة إلى العربية والإنجليزية ، فهو وحده الذي يقول بأن كلام ياقوت عن باضع إنما يقصد به مصوع. ويضيف بأن الناس في باضع (مصوع) ما زالوا يتحدثون اللغتين العربية والتيجرية وأنهم يكتبون خطاباتهم لبعضهم بعضا باللغة التيجرية ولكن يستعملون في ذلك الحروف العربية . أما باضع هذه التى هى عيرى فإن كل ما كتب فيها من شواهد قبور إنما كان باللغة العربية الفصحى . بل إن هذا الشاهد الذي وجدناه قد اشتمل على بيت من الشعر أو ربما بيتين مما يدل على أن هناك بعض المحاولات قد جرت في الجزيرة لنظم الشعر ، وربما لو حدثت حفريات لوجدنا بعض المخطوطات التى قد توضح لنا ما أغلق من تاريخ الجزيرة .

ولفائدة القارئ فإنه لا يتوقع أن تكون هناك زراعة في الجزيرة بسبب كميات المياه المحدودة التى تفرغها الأمطار بالرغم من وجود بعض المراعى التى يقوم الآن بعض رعاة قبيلة الأفلندة والعجيلاب بإطعامها لإبلهم التى يخوضون بها مياه البحر لترعى في الجزيرة الخالية . ولا شك أن كثرة وجود الأغنام والبقر والإبل عند قبائل البجة على الساحل قد جعل من

---

[٣٠] يقول محمد صالح ضرار مؤرخ البجة بأن التيجرية هي لغة عاد وثمود الذين هاجرت جماعات منهم الى شرق السودان قديما

السهل على أهالي الجزيرة الحصول على سمنهم ولبنهم وما يحتاجون إليه من ذرة ودخن ولحم مقدد وغير مقدد من أهالى الساحل . وعلى العموم فان كل ما في جزيرة عيرى أو الريح كما يسميها بعضهم أحيانا يحمل الإنسان على الرغبة الملحة في الكشف عن خفاياها وتاريخها ومأساتها إن كانت بالفعل قد دمرت بفعل بعض الغزاة المجهولين .ولا يعرف بالضبط من هم وهل كانوا من الصليبيين أيام البرنس رينولد أم أنهم مكثوا في جزيرتهم حتى ظهور البرتغاليين في القرن السادس عشر ، أم أنهم أحباش هاجموها في عصر من العصور ، أم ترى أنه الناموس الذى قض مضاجعهم ففروا من لدغاته التى قتلت اللورد كارنافون عندما اكتشفت بعثته مقبرة توت عنخ آمون وأيقظته من نومه العميق .

عيـــذاب وجـــــدة

تقع ميناء عيذاب على بعد عشـرة أميـال مـن جبـل إيربـا في حـدود السودان الشمالية الشرقية . وقد ذكر ابن حوقل هذه الميناء في القرن العاشر الميلادى وقال بأن ما يستخرج من ذهب من أرض المعـدن في وادى العلاقـى كان يحمل إلى قلعة على سـاحل البحـر تسـمى عصـب أو عصـت حيـث أن الكتابة لم يكن من السهل تحديدها .

وقـد ذكـر المقريـزي بأنـه لمـدة ٢١٥ سـنة بعـد سـنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨م) كانت قوافل الحج إلى مكة المكرمة تتبع طريق عيذاب ، وأن هذا الميناء كان يعد من أهم موانئ العالم إذ كانت ترسو فيـه السـفن القادمـة مـن اليمن والهند .

ولم تسلم عيذاب من الغزو الصليبي إذ أن رينود دى تشـاتيلون أعـد السفن الكثيرة والرجال وأبحر في البحر الأحمر في سنة ١١٨٢م حيـث هجـم على المدينة ومن فيها من حجاج وتجار ، ونهب أمـوال المقيمـين فيهـا، ودمـر المساكن ،وقتل قافلة بأكملها ،كما حطم ست عشرة سفينة كانت راسـية في الميناء . وقد وقع رينود هذا الذي كان أميرا على الكـرك في فلسـطين في يـد السلطان صلاح الدين ولقى جزاءه علـى غـدره ووحشـيته التـى مارسـها في غزوته البحرية تلك وغيرها مـن الأعمـال الإرهابيـة في قطـع طـرق القوافـل المدنية .

وذكر الإدريسي عيذاب ، وقال بأنها ملتقى تجار اليمن والحجاج القادمين عن طريق مصر حيث يعبرون البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة للوصول إلى أرض الحرمين الشريفين . ويضيف بأن الرحلة إلى جدة من عيذاب عبر البحر الأحمر كانت تستغرق بتلك السفن يوما وليلة . وكانت هناك اتفاقية ثنائية حول عيذاب بين ملوك البجة وبين حكام مصر على اختلاف عصورهم وأمرائهم وسلاطينهم .

وتعرض ليوأفريكانس [1] إلى عيذاب قائلا بأنها كانت في وقت من الأوقات مدينة غنية وأسماها " زبيد " ،كما أوضح بأنها كانت على الجانب الآخر من البحر قصاد جدة التى أطلق عليها (زيدم) التى تبعد حوالى أربعين ميلا من مكة . وأضاف ليو أفريكانس الذى عاش حوالى سنة ١٥٢٩ بأن هذه المدينة (عيذاب) قد صادفت مصيرا سيئا إذ أنه قبل مائة سنة من كتابة ما كتب قام سلطان مصر بالإغارة على المدينة ودمرها تدميرا كاملا تأديبا لسكانها الذين استولوا على هدايا كان حاكم زبيد باليمن قد أرسلها إلى مكة . ولهذا السبب فان سلطان مصر قد دمر عيذاب بعد أن كانت تدر دخلا طيبا لمصر ولملك البجة . ونظرا لهذه الحملة العسكرية فقد فر أهالي الميناء من وجه جنود السلطان إلى " دنقلة " [2] وسواكن . ولم يجدوا في سواكن مصيرا أفضل مما صادفهم في عيذاب إذ أن حاكم سواكن انقض عليهم هو وأهل البلدة وقتلوا منهم حوالى ألف رجل ، وتمكن من أسر ألف

---

[1] ليو أفريكانس هو حسن الوزان زكتابه بعنوان وصف إفريقيا .

[2] يشير مرى murray بأنه ربما كان المقصود مرسى دنقوناب على البحر الأحمر وليس دنقلا عاصمة النوبة التاريخية المعروفة

آخرين حيث أحضروا إلى مدينة سواكن وتركوا للنساء والأطفال للفتك بهم وإزهاق أرواحهم .

ويعتقد أن هذه الأحداث حدثت في أيام السلطان المملوكي الأشرف برسباي سنة (١٤٢٢ – ١٤٣٨ م). ويبدو أنه في هذا الوقت كان التنافس على أشده بين سواكن وعيذاب ، فقد وصلت جماعات من حضرموت إلى سواكن واستقرت فيها ، وكانت تهدف إلى الاستيلاء على تجارة البحر الأحمر بين سواكن وجدة وبقية أنحاء الهند وشرقي إفريقيا والشرق الأقصى . لذلك فقد انتهزوا فرصة غضب السلطان المملوكي على أهل عيذاب وحكامها من البلويين فانقضوا على من لجأ إليهم منهم وأنهوا سلطانهم بين منطقتي عيذاب وسواكن .

أما هؤلاء الحضارم فقد استوطنوا في سواكن واختلطوا بالأهالي وكونوا قبيلة بجاوية جديدة عرفت بالأرتيقة وأصبحت هي المتزعمة على حكومة سواكن بعد إزالة ملك بقايا مملكة البلويين فيها . وبذلك أصبحت هذه الموجة الجديدة سيدة على منطقة سواكن وأخذ نفوذها يتسع رويدا رويدا كما ظهر في تاريخها [٣].

وفي سنة ١٨٩٦ قام ثيودور بينت بزيارة إلى عيذاب وبدأ في عمل حفريات فيها في أحد التلال الصغيرة ، ولكنه ، على ما ذكر ، لم يجد فيها شيئا أكثر من بعض البقايا الكوفية ، وحفروا بعض المقابر ولكن لم يجدوا فيها غير بقايا عظام . وكان هذا الموقع الذي جرت فيه هذه الحفريات على مسافة ١٢ ميلا شمالي حلايب . ويعرف لدى أهل المنطقة بسواكن القديم أو

---

[٣] راجع تاريخ الأرتيقة في كتاب تاريخ سواكن والبحر الأحمر لمحمد صالح ضرار (طبع الدار السودانية) وارجع إلى تاريخ الحضارم في هذا الكتاب .

القديمة . ويرى بنت BENT أن هذه المدينة ربما بنيت أصلا على جزيرة أو أنه ربما حفر ساتر صناعي حولها لحماية الجانب المواجه لأراضي الساحل. وبالرغم من أن هذا الموقع قد كاد يندثر الآن إلا أنه يمكن التعرف عليه بأكمله .

ويرى مرى MURRAY أنه ليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بأن هذا المنخفض قد حفر صناعيا أو أن الموقع كان جزيرة في تلك الحقبة التاريخية .

ويمضي " بنت " في وصف الموقع قائلا بأن خزانات المياه الكبيرة ما زالت في حالة جيدة صالحة للاستعمال ، كما أنه قد علم بأنه قد وجد في ذلك المكان حجراً عليه كتابة بالخط الكوفي وذلك قبل عدة سنوات ، وليس هناك ما يدعو للشك في أن هذا الموقع هو موقع مدينة عيذاب التي ذكرها الجغرافيون العرب أبو الفدا والإدريسي و غيرهم .

ويعجب " بنت " من الأسباب التي جعلت السابقين يفضلون موقع عيذاب على موقع حلايب التي كانت هي إحدى مراسي البطالسة ، والتي عرفت عندهم باسم شيرسونيز ، إذ أن مرسى حلايب كان أفضل من ناحية سكون البحر .كما أن المياه القليلة الملوحة كانت متوفرة فيها . أما عيذاب فإن المياه العذبة في منطقتها تقع على بعد عشرة أميال منها حيث يوجد نبع في جبل إيربا . وقد وصف ابن جبير حالة عيذاب بأن كل شئ يجلب إليها حتى الماء ، وكذلك فصل ابن بطوطة بأن مياه الشرب تحفظ في بيض النعام ليستقي منها الناس . وفي موضع آخر يقول ابن جبير بأن هناك منابع للمياه العذبة الصالحة للشرب في موضع " يعرف بدنقاش وهي بئر معينة يرد فيها من الأنعام والأنام ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل " [٤] . ويبدو أن هذا البئر

---

[٤] ابن جبير – انظر مسعد ص ١٥٢ / ١٥٣ – المكتبة السودانية .

المعين كان بالفعل مجتمع سائر الناس في عيذاب إذ أضاف ابن جبير بأن " في هذا الماء وقعت بين بعض جمالي العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب وضمانها ، وهم من بلي من أفخاذ قضاعة ، وبين بعض الأغزاز " الأتراك الغز " بسبب التزاحم على الماء – مهاوشة كادت تفضى إلى الفتنة ، ثم عصم الله منها . "

ويبدو أن ابن جبير كان ممتازا في التعرف على ما حوله من مواضع وأناس ، وهو هنا قد استقى المعلومات الصحيحة عن هؤلاء الحدارب زعماء البجة من البلويين ، وعرف عن نزوحهم الى أرض البجة وتولي حراسة القوافل التجارية بين البحر الأحمر وموانئه وبين قوص وأسوان وغيرها من مدن صعيد مصر .

واستطاع مَرِي أن يقوم ببعض الحفريات في الأنقاض بحثا عما فيها من مخلفات ، ووجد في مصب خور غريب المشتق من عيذاب بئرا ذات ماء مالح. ولاحظ مرى أن بقايا المنازل كانت تدل على أن المبانى كانت صغيرة الحجم ، وأنها كانت تسقف بالحصر ، كما كان يفعل أهل القصير هذه الأيام ،وذلك لقلة الأمطار التى تصب في تلك الأنحاء . وسرعان ما وجد بعد الحفريات التى بدئت أن المرتفع الذى كانوا يحفرون فيه إنما كان مسجدا إذ ظهر موضع القبلة في الجدار واكتشف أنه عثر على بناية لها أهميتها .

وبالإضافة إلى التعرف على المسجد الجامع الذى ربما كان هو الذى ذكره ابن جبير في رحلته، فإن مرى عرج على خزانات المياه التى سبق " لبنت " العثور عليها وأخذ في قياس أحجامها . وكانت هذه ثلاثة خزانات أحدها وهو الشمالي طوله ١٦ متر وعرضه ٣،٥ وعمقه مترات . أما الأوسط فقد كان طوله ١٧ مترا وعرضه مترات ونصف وعمقه ٢،٦ مترا

وأما الثالث وهو الجنوبي فقد كان طوله ١٧ مترا وعرضه ٤ أمتار ولم يتعرف على عمقه . وقدر مرى بأن هذه الخزانات كان بإمكانها أن يحفظ كل منها إلى خمسة وعشرين ألف جالون . وكان الخزان الشمالي مملوءا بمياه الأمطار آنذاك، ولكن بعد ثمان وأربعين ساعة جفت مياهه بفعل النز، أما الخزانان الآخران فقد كانا بحاجة إلى كثير من الإصلاح والترميم .

كذلك وجدت في الموقع بعض العملات العربية النحاسية ، واستطاع المنقب التعرف على إحداها على أنها عملة ضربها السلطان المملوكي بيبرس الذى كان حاكما على مصر بين سنة ١٢٦٠ - ١٢٧٧ للميلاد . وعثرت البعثة على كثير من الحلي الزجاجية والسكسك ، وقد أخذ العمال البجة هذه الحلي ولبسوا بعضها في أذرعهم إعجابا بما كان لدى نساء عيذاب من حلى . وكان من بين ما وجد بعض بقايا أوانى البورسلين الصينية وغيرها مما أظهر نوع السلع التجارية التى كان يتعامل فيها الناس بين القرن الثانى عشر إلى الخامس عشر وذلك بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى ، مما يدل على ازدهار التجارة ، وارتباط العالم بذلك النشاط الإنساني .

ومما يثير الحزن في النفوس أن حجم المقابر كان كبيرا جدا إذا ما قيس بحجم المدينة الصغيرة التي ، حسب اعتقاد مري ، لم يكن يسكنها في أي يوم من الأيام أكثر من ألف وخمسمائة نفس . وأرى أنه يعزى حجم المقابر الكبير إلى كثرة الذين يتوفاهم الأجل سواء عند وصولهم إلى عيذاب للعبور إلى جدة في مواسم الحج ، أو عند انفضاضهم من الحج والعزم على الرجوع إلى أوطانهم سواء في شمال إفريقيا أو الأندلس . فلما رأى مري

كثرة المقابر المنتشرة في مقبرة المدينة أخذ في إحصائها واستطاع أن يعد حوالي ثلاثة آلاف قبر كلها لمسلمين .

وقد أثار عدد القبور هاجس هذا الكاتب أي مري فذكر بأنه ربما كان السبب في كثرة الوفيات عائد إلى سوء الأحوال الصحية في المنطقة . غير أنه ربما نسى أن تاريخ عيذاب يمتد من حوالي سنة ٣١هجرية عندما عبر إليها عبد الله بن سعد بن أبي السرح من جدة إلى حوالي سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م عندما قام السلطان المملوكي الأشرف برسباى بتدميرها تأديبا لأهلها من البجة ، فهى قد كانت على مدى ثمانية قرون تقريبا من أهم المراكز التجارية حتى وصفها ابن جبير بأنها من أحفل مراسى العالم [٥] .

في الواقع أدى فتح مصر والمقاومة النوبية للمسلمين في شمال السودان منذ أيام الفتح الأولى والمخالفة المسيحية بين الروم والنوبة إلى ازدهار ميناء جدة في الجزيرة العربية ، وعيذاب في السودان . وقد كان الطريق البحرى مفتوحا بين الضفتين ، ومع فتح هذا الطريق البحرى ازدادت التجارة بين الجانبين العربي والسوداني . وقد نشطت هذه التجارة في مختلف السلع السودانية التى كان يبحث عنها التجار العرب المسلمون الذين بدأوا في التدفق إلى الشواطئ السودانية ، ثم بعد ذلك أخذوا يتوغلون في كافة أنحاء السودان . ويبدو أن سلوكهم كان وديا كما أن نشاطهم كان حيويا لكل من الجانبين .

بالإضافة إلى أهمية جدة من الناحية التجارية ، فقد أصبحت لها أهمية أخرى ترجع إلى أنها أضحت أهم موانئ الجزيرة العربية لاستقبال

---

[٥] كان الأشرف برسباى المملوكى سلطانا على مصر في الفترة ما بين سنة ٨٢٥هـ - ٨٤٠ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧م

حجاج بيت الله الحرام . ومنذ العهد الإسلامي الأول فقد كانت جموع حجاج البيت الحرام القادمة من شرقي أراضي الجزيرة العربية وشواطئ الخليج وخاصة من الأراضي العمانية ، كانت تصل إلى مكة المكرمة عبر البحار. فكانت تبحر في المحيط الهندي وتدخل البحر الأحمر من باب المندب ، ثم تسير على الشاطئ الغربي منه وترسو في المرافيء السودانية حتى تصل إلى عيذاب . ومن هناك تعبر البحر الأحمر إلى جدة .وقد وصف ابن حوقل طريق عمان البرى للحج فقال (وطريق عمان يصعب سلوكه في البرية لكثرة القفار وقلة السكان ، وإنما طريقهم في البحر إلى جدة فإن سلكوا على السواحل من مهرة وحضرموت إلى عدن أو إلى طريق عدن، بعد عليهم، وقلما يسلكونه، وكذلك ما بين عمان والبحر ين[٦]فطريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب وتنازعهم فيما بينهم) .وكان البحارة العرب وغيرهم عندما يدخلون البحر الأحمر من باب المندب يتجهون شمالا مرورا بالمرافيء السودانية حتى يصلوا إلى عيذاب ، ومن هناك يبحرون إلى جدة حيث تستغرق الرحلة يوما وليلة حسب ما ذكر ابن حوقل . وغني عن الذكر أن نقول بأن شواطيء البحر الأحمر الغربية كان يكثر فيها السمن واللحم والذرة والماء وسائر الأقوات والسلع التجارية التى تصلح للموسرين المترفين سواء في الخلافة الأموية أو العباسية أو البلاد الأوربية التى بدأت في التعرف على هذه الرفاهيات ،والسعي للحصول عليها عن طريق مصر .

وعندما بدأ استخراج الذهب من وادى العلاقى كانت الاتصالات بين جدة وعيذاب تعج بالسفن المبحرة بين الشاطئين وكثرت حركة القبائل

---

[٦] يقول ياقوت : البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان(ولذلك فهى لا تعنى دولة البحرين الحالية)٠

العربية بين الساحلين .كما أن قطعان الإبل التى كانت تصدر إلى الجزيرة العربية كانت كثيرة ،كما كانت الأسلحة الفتاكة فى ذلك الحين وهى الأقواس والسهام قد وجدت طريقها من بلاد النوبة إلى كثير من أنحاء الجزيرة العربية حيث عرفوا مقدار فتكها بالجنود فاستعملوها. ومن بين الصادرات الشهيرة التى كانت تصدر من بلاد البجة الى مكة المكرمة الحمام البازي وقد ذكر ياقوت أن بازة بلد بأرض السودان وراء سواكن يذكر مع ناقة ، يجلب منه الحمام البازي إلى مكة شرفها ا لله .

ولعل من أهم الصادارت التى كانت تصل إلى جدة من عيذاب الزرافة. وقد ذكر البلاذرى أن الخليفة العباسى المهدى قد ألزم النوبة بإرسال زرافة له سنويا مع البقط . كما عرف ابن خرداذبة النوبة بأنهم أصحاب الزرافة التى تهدى إلى الخلفاء . أما فى أيام حكم المماليك لمصر فان السلطان الظاهر قد زاد العدد فى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٦م من واحدة إلى ثلاث وذلك فى المعاهدة التى أبرمت مع الملك النوبي شكندة (مشكند).

وقد احتلت جدة مكانة مرسى شعيبة الذى كان معروفا لدى العرب منذ الجاهلية ، والذى ركب المهاجرون الأوائل منه البحر فى هجرتهم إلى الحبشة. وازدادت أهمية جدة فيما بعد حين انتشار الإسلام فى فارس وغيرها. وعندما انهارت مدينة سيراف الفارسية لجأ بعض الفرس إلى جدة واستقروا فيها مع العرب. ولما ازدحمت المدينة بالسكان بدأت أزمة إيجاد الماء لها .وكما حدث فى عيذاب من بناء للخزانات فقد قام الأهالي بحفر وبناء ثمانية وستين خزانا داخل أسوار المدينة ، كما أقاموا نفس العدد من الخزانات فى خارجها وذلك للاحتفاظ بمياه الأمطار ، واستخدامها عند الضرورة. ولما وجد أن هذا العدد من الخزانات لا يفى بحاجة المدينة ، حفرت خزانات

أخرى داخل المدينة وخارجها بلغت اكثر من خمسمائة خزان. وكان لدى الأهالي من الناس من يقوم بسحب المياه من خارج أسوار المدينة على جوانب الخيول ويفرغونها فى خزانات صغيرة داخل بيوتهم. ومن بين الظواهر المشتركة بين جدة وعيذاب تلك المكوس التى كانت تفرض على حجاج بيت الله الحرام فى كل من البلدين. فقد كان على كل حاج أن يدفع في عيذاب سبعة دنانير ونصف. فإن لم يدفعها هناك طولب بها فى جدة .ويذكر ابن جبير أن من لم يدفع المكس الذى عليه فى عيذاب يعذب عذابا شديدا ، ويعلق من أنثييه حتى يدفع تلك الإتاوة .أما ابن المجاور فيذكر أن من لا يدفعها فى جدة للشريف الذى كان خاضعا للخليفة الفاطمي فى مصر ، فإنه كان يزج به فى أحد الخزانات ، أو ينفى إلى إحدى الجزر حتى ينتهى موسم الحج وبذلك يفوت عليه أداء الفريضة فى ذلك العام .

ويعطى ابن المجاور (المولود فى دمشق حوالي سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م) وصفا مختصرا لجدة ، فهو يذكر بأن هذا الاسم أطلق على المدينة لأن بها قبر أمنا أو جدتنا حواء. ويصفها بأنها بلدة صغيرة. وهي ميناء مكة المكرمة حيث يصل إليها الحجاج من سائر أنحاء العالم. فمنهم من يأتى من مصر ومن المغرب والهند واليمن. وفى موسم الحج تعج المدينة بالحجاج وتصبح الإقامة فيها غير محتملة . وبسبب هذا الازدحام يتعذر الحصول على ماء ، فيلجأ الناس إلى الذهاب إلى مكان يعرف بالقريب بين جدة ومكة المكرمة. ويضيف بأن بالمدينة عددا كبيرا من الفنادق لاستقبال الحجاج .[٧] وهكذا عاشت كل من جدة وعيذاب فترة طويلة من الوقت ، ومرت بهما أحداث مماثلة وحكام مشتركون بين المدينتين. فلما أخنى الدهر

---

[٧] الدكتور انجلو بسكي ANGELO PESCE جدة

على عيذاب ، وحاق بها الخراب والدمار أصبحت اثـر ا بعـد عـين انتقلـت هذه الصلة بين الشاطئين إلى علاقة أقوى وأمتن ، وحضارة مشتركة عظيمـة بين جدة وسواكن. ونجد بعض الوصف لهذه الصـلات العميقـة الحميمـة فـى فصلنا عن " الجزيرة العربية والسـودان فـى بعـض المخطوطـات السـودانية " فإلى هذا الفصل أرجع القارىء الموقر لتكتمل لديه صـورة الروابـط التاريخيـة بين العدوتين .

باضع (مصـــوع)

لما كانت مصـوع هـي الميناء الجنوبيـة التابعـة لمملكـة البجـة والتـى كانت فى بداية عصور الجغرافيين العرب تعرف باسم باضع اعتمادا منا على ما أقره محمد صالح ضرار ، على أساس أن جزيرة عيرى ليست هى باضع ، فإننا نريد أن نقول بأن هناك تماثلا كبيرا بين كل من مصوع وسواكن وعيرى حيث أنها كلها جزر صغيرة بالقرب من الساحل الإفريقي ، وأن الميـاه التـى تفرق بينها وبين اليابسة لا تتعدى بضع عشرات مـن الأمتار. ويقـول محمـد صالح ضرار إن أصل الاسم مصـوع مشتق من كلمـات تيجريـة و هـى " مَصْ وَعْ " أى كم تبعد المسافة ، أو على بعدكـم. ويقـول بـان هـذا اللفـظ ربما جاء سؤالا من الأهالي الذين كانوا يسكنون فى الأرض اليابسة متسائلين عن المسافة بين اليابسة والجزيرة ، ثم حرفـت هـذه الألفـاظ و أصبحـت فـى نهاية الأمر (مصوع). ويرى كروفورد أن هذا لا يعدو أن يكون مـن بـاب التخريج الذى لا حقيقة تسـنده . وبالإضافـة إلى الاسـم مصـوع فـإن هـذه الجزيرة يطلق عليها " بـاضع" وبعضهـم ينطقهـا " بـازع" .وهنـاك كثـير مـن

استبدال الحروف فى هذه المنطقة التيجرية (اللغة البنى عامرية) خاصة فيما يختص بالضاد والدال اللتين تقلبان عند لغة أهل مصوع التجرية إلى " زين " ، بينما يقلب أبناء بنى عامر السودان الزين إلى دال .وكل هذه الاستبدالات إنما ترجع فى أصلها الى الأصول العربية التى طغت فيما بعد على اللهجات العامية السامية فى مختلف الأقطار .

ترجع علاقة مصوع أو باضع بالجزيرة العربية إلى فترة ما قبل الإسلام ، بل من الأرجح أن تلك العلاقة ترجع إلى هجرات قبيلة بلى الأولى قبل القرن الثالث قبل الميلاد إلى الشواطىء الإفريقية . وربما كانت هجرة بلى ذات ثلاث طرق إحداها عن طريق سيناء " ، والطريق الثانى عن مرسى الشعيبة قرب جدة إلى عيذاب ومصوع ودهلك. وقد ظهرت معرفة العرب لجزيرتي دهلك ومصوع منذ العقدين الأولين للهجرة حينما أصبحت هذه الجزيرة جزءا من الدولة الإسلامية ، وحين أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا محجن الثقفى منفيا إليها ، كما أرسل غيره إلى باضع أيضا . وعلى العموم فكلا الجزيرتين قريبة من بعضهما بعضا بحيث أصبحنا شيئا مشتركا .

استطاعت قبيلة بلى أن ترث زعامة قبيلة البجة وممالكها الخمس التى كانت فى المنطقة قبل الإسلام ، واختلطوا هناك بزعماء البجة ثم ما لبثوا أن صاروا أهم الملوك ، وأصبحت هذه الأسرة الجديدة تعرف بين سكان الإقليم ولدى المؤرخين والجغرافيين العرب بالحدارب . وقد عرف لفظ بلوى فى كافة إقليم البجة على أنه رمز للزعامة والسيادة.[٨]

وسكان أرخبيل دهلك الذى كان تابعا لمملكة البجة قبل الاستعمار الأوربي فى القرن التاسع عشر كانوا على اتصال منذ القدم بسكان جزيرة

[٨] محمد صالح ضرار : تاريخ اقليم البجة

العرب ، بل كان اتصالهم متينا بقريش التى كانت زعيمة التجارة العربية. ونحن نعرف أن قريشا أرسلت وفدا من كفارها وراء المسلمين الذين هاجروا فرارا بدينهم من مكة المكرمة والتجأوا إلى النجاشي. وكان هذا الوفد القرشي يتكون من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومى . ولم ينجح فى إثارة حقد النجاشي على المهاجرين المسلمين ، بل أدت تلك المؤامرة إلى وقوف النجاشي مع المسلمين ثم موته مسلما فى آخر الامر .

وكان وصول المهاجرين المسلمين فى البعثتين المتتاليتين عن طريق أرخبيل دهلك.وفى أغلب الظن بالنزول إلى مصوع ، ومنها إلى هضبة مصوع ، ومنها إلى هضبة الحبشة حيث يسكن النجاشي. وسكان مصوع أو باضع كما كانت تسمى آنذاك كانوا خليطا من العرب النازحين من سائر أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة من اليمن .وهؤلاء من قبيلة بلي بالإضافة إلى الأقليات العربية التى نزحت معها. وقد أصبح كل هؤلاء يتحدثون باللغة التيجرية التى حلت محل اللغة التبداوية أو البجاوية ، وذلك فى المناطق الساحلية من البحر الأحمر بين مصوع حتى سواكن . أما المناطق المرتفعة من أراضى مملكة البجة ، فإنها لم تتأثر بهذه اللغة التيجرية بل استمر أهلوها فى التحدث باللغة البجاوية التى يصنفها علماء اللغات على أنها لغة كوشية مثل لغة الصومال والقالا فى الحبشة ، بينما تعتبر اللغة التيجرية أو البنى عامرية من اللغات السامية .

وكان وجود هؤلاء الأقوام من بنى عامر ذا فائدة عظيمة للمهاجرين المسلمين الأوائل لأنهم استقبلوهم فى بلادهم ، وطمأنوهم على حياتهم ، واخيرا أوصلوهم إلى نجاشي الحبشة رغم صعوبة الطريق الوعر وطوله . ورغم أن الأحباش كانوا يدينون بالنصرانية ، لهذا فلم تحدث أية مناوشات

أو اضطهاد من جانب قبائل البجة الجنوبية التى كانت تسكن فى تلك الجهات وبين المهاجرين المسلمين أثناء إقامتهم الموقتة بينهم لحين سفرهم إلى النجاشي داخل الأراضي الحبشية .

وسرعان ما اعتنق البجة القاطنون فى هذه السواحل الدين الإسلامي تماما كما فعل أقرانهم الذين كانوا يسكنون فى شمال مملكة البجة بين سواكن وعيذاب . وكان البجة الشماليون قد اعتنقوا الدين الإسلامي وقبلوا بشروطه فى سنة ٣١ هـ عندما التقوا بعبد ا لله بن سعد بن أبي سرح . أما فى جزيرة دهلك وباضع فيبدو أن الدين الإسلامي اخذ ينتشر بين السكان منذ هجرة المسلمين الأولى عام ٦ قبل الهجرة ، ثم أصبح أكثر عمقا في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب الذى أرسل أبا محجن الثقفى منفيا إليها كما ذكرت المصادر العربية . وهذا يشير بشكل ما إلى أن هذه الجزر كانت تحت حكم المسلمين . أما كيف آلت إليهم فهذا قد يكون عن طريق أنها كانت اسميا تحت الحكم اليمنى حتى إذا اعتنق أهل اليمن الإسلام أصبحت تابعة للدولة الإسلامية.

وفى سنة ٨٣هـ ازدادت أهمية هذا الأرخبيل الاستراتيجية وذلك عندما هاجم الأحباش فى تلك السنة ميناء جدة الإسلامي . وقد كان ذلك الهجوم مثار تخوف كبير فى أوساط الخلافة الأموية لأنها دلالة على أن أمن البحر الأحمر وسلامة حجاج بيت ا لله الحرام اصبح فى خطر ، إذ كان يخشى أن يلجأ الأحباش المسيحيون إلى اختطاف المسلمين عندما ترسو سفنهم فى جدة أو عندما يرسون على السواحل فى طريقهم إلى الحج . لذلك فقد قام الأمويون فى خلافة عبد الملك بن مروان بتثبيت أقدامهم فى جزر دهلك وباضع وبقية جزائر الأرخبيل ، ووضعت فى تلك الجزر قوات وسفن لحماية

مدخل البحر الأحمر من أي اعتداء مسيحي أو غيره. وبهذه الطريقة فقد استطاع الإسلام أن يثبت أقدامه فى تلك السواحل الإفريقية حيث تمكن الإسلام من الانتشار فى أنحائها عن طريق التجارة والاتصال حتى أصبحت المنطقة بأسرها مسلمة فى غضون قرن أو اقل .

وتأييدا لهذه الفكرة فقد وجد فى هذه الجزر الكثير من شواهد القبور لموتى المسلمين . ويذكر ترمنجهام أن ما يؤيد خضوع دهلك وباضع إلى المسلمين ما ذكر فى كتاب الأغانى عن نفى الشاعر الأحوص والفقيه عمر بن مالك فى عهد الأمويين إلى هذه الجزائر.[٩] ويضيف ترمنجهام بان هذه الجزر قد هاجمها الهنود فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى عندما نفى أبناء عبد الجبار حاكم خراسان فى خلافة المنصور سنة ٢٣٦هـ / ٨٥١م . وتظهر تواريخ كتابات شواهد القبور فى الجزيرة أنها ترجع إلى القرن التاسع الميلادى ٨٠١/ ٩٠٠ . وأهم ما يلاحظة الباحثون عظم التشابه بين الأحداث والآثار الموجودة فى كافة جزر البحر الأحمر التابعة للسودان منذ فجر الإسلام . كما يرى أيضا انه بالرغم من الحروب الأولية التى قامت بين المسلمين والبجة فإنها لم تكن بسبب نشر الدين الإسلامي ، ولكنها كانت بسبب تعارض المصالح القومية لكل من تلك الشعوب ، لأن البجة – كما ذكرنا – اعتنقوا الدين الإسلامي اعتناق تكليف قبل أن يدخلوا فى أي معركة مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو لم يقدم على حربهم أو مطالبتهم باعتناق الإسلام فى ذلك العام الذى تولى فيه إمارة مصر وصعيدها سنة ٣١ هـ/ ٦٥١م.

---

[٩] الجزء ٤ ص ٢٣٩ و ٢٤٦ و ٢٤٨ و ٢٥٠ و ٢٥٥ الاغانى طبع بالقاهرة انظر الطبرى ايضا ج ٣ – ١ – ١٣٥

واشتهرت دهلك بين العرب ، وجاء ذكرها في أبيات لأبي المقـدام وهو يذكر بنت القطامي ورغبته في زيارتها أني حلت فقال:

ولو أصبحت خلف الثريا لزرتها بنفسي ولو كانت بدهلك دورها

أما أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندري فلم يكـن عطوفـا على دهلك ، وما ذلك إلا لكثرة ما لاقـى مـن مشـاق أثنـاء سـفره إلى تلـك الجهات . فقد قال يذكر دهلك وصاحبه مالك ابن الشداد[١٠]

وأَقبِحْ بدهلك من بلدة فكل امرئ حلها هالكُ

كفاك دليلا على أنها جحيم وخازنها مالكُ

وكل ما يعنينا في هذا الشعر الذى هو ديـوان العـرب ، أنهـا كـانت جزيـرة عربية يطرقها المسافرون العرب من وقت لآخر للتجارة والسياحة. ولكن لمـا كانت باضع أقرب إلى السـاحل فقـد كـانت هـى المركـز التجـاري الأهـم ، والقلعة الحربية ذات الاستراتيجية العظيمة. وبسبب موقـع بـاضع (مصـوع) التجاري والحربي فإن هذا الميناء قد كان من أهم أسباب النزاع بين المسلمين سكان السواحل ، وبين الأحباش المسيحيين سكان المرتفعـات. وفـى خـلال فترة التوسع التـى انتهجتهـا الإمـبراطور الحبشـي النقـس إسـحاق فإنه بـذل جهودا جبارة في سبيل مد نفوذه حتى باضع لتكون الممر المائي لإمبراطوريته فدخل في حروب مع قبائل البجة الساحلية ، وامتـد هـذا النفـوذ إلى عـرب تيجرى وأعالي بركة ، وذلك خلال القرن الخامس عشر . وأصبح لـه نفـوذ

[١٠] ياقوت الحموى : دهلك

جعله يستطيع جمع إتاوات وضرائب من حكام المنطقة مع احتفاظهم بحكم ذاتي .

وفي القرن السادس عشر اضمحلت قوة نجاشي الحبشة ، وضعفت قبضته على كثير من الأراضي الساحلية ، ولم يستطع أن يقاوم انتفاضات أهل السواحل المسلمين الذين ثاروا على صليبيته وذلك بزعامة الإمام أحمد قران ، واشتركت جميع قبائل السواحل في القرن الإفريقي حتى مصوع وشماليها وجنوبي سواكن في حروب طاحنة ضد النجاشي ، مما جعله يلجأ إلى الدول الأوربية إذ دعاها لاحتلال موانئ البحر الأحمر . ولكن الخليفة العثماني حفاظا على طرق الملاحة بين بلاد الهند والشرق الأقصى والخليج العربى وغيره من بلاد المسلمين قرر أن يضع حامية تركية عثمانية في باضع (مصوع) لمنع الأسطول البرتغالى من الدخول في البحر الأحمر وفرض تهديدات على جدة والساحل العربي ومن ثم الاعتداء على الحرمين الشريفين .

وقد كانت هناك تهديدات عظيمة للحرمين الشريفين وسائر موانئ البحر الأحمر لولا أن وهب الله النصر في آخر الأمر للأسطول العثماني وطرد الأسطول البرتغالى من كل شبر في البحر الأحمر .

وقد كانت مصوع جزءا من قائمقامية جدة طوال الحكم العثمانى ، ثم انتقلت إلى الحكم المصرى الخديوى فى القرن التاسع عشر و عند قيام المهدية ، وأخيرا احتلها الطليان في أواخر القرن التاسع عشر ، وأصبحت ما أسماه الطليان إرتريا .